

الأدب القصصى المصرى

(بمناسبة صدور كتاب مختار القصص للأستاذ الكبير كامل كيلانى — طبعته دار)
(العصور ونشرته مكتبة الوفد)

(١)

سنظل نشكو قلة القصص فى الأدب المصرى مع وفرة ما تنشره الصحف وتخرجه المطابع وسنظل نشكو هذه القلة أبداً حتى نخلص منها إلى شكوى التخمّة القصصية يوم تحتاج القصص كل فنون الأدب المصرى وتسد علينا كل منافذه. وفى الحق إن فن القصص المصرى قد أخرج لنا إلى الآن عدداً لا بأس به من الأقاصيص العصرية المؤلفة ولو أن الروح القومية روعيت فيها كلها لأصبح صرح هذا الأدب الجديد فى مصر متين الأساس ولكن الواقع أننا متأثرون — حتى فى أدبنا القومى — بالبيئة الغربية والوسط الغربى والروح الغربية الروائية فى معظم ما يظهر من القصص فى الأدب المصرى. فهى كلها لا تمثل من الحياة المصرية إلا النواحي الوصفية وكفى. أما تصوير البيئة المصرية والروح المصرية أو بمعنى آخر تصوير العاطفة المصرية الصحيحة، فلن تعثر عليه فيما يتفق لك من قصص مصرية ولن تجد كاتباً مصرياً يعنى بتصوير هذه الناحية — وقلة عنايته هذه لا ترجع إلى عدم اهتمام بها ولكنها ترجع أكثر إلى القصور أو ببساطة أصرح إلى الجهل والعجز. لا أقول إن كاتباً لم يحاول تصوير العاطفة المصرية فى الأدب القصصى المصرى الجديد، ولكننى أقول أن معظمهم إن لم يكونوا كلهم — قد أخفقوا فى ذلك ! وظلم متأثر فى تصويره بالمجتمع والبيئة الغربية أو بمطالعاته فى الأدب القصصى الغربى .

وقد يكون صحيحاً أن الحياة المصرية والمجتمع المصرى بتقاليده الحالية وفى موقفه الشاذ الحاضر، لا يمكن أن يلهم المؤلف محوراً لقصة طريفة ! قد يكون هذا . ولكن العاطفة موجودة فى الحياة المصرية على كل حال وتصويرها على حقيقتها الراهنة

الآن هو الأساس المطلوب للأدب القصصى القومي في مصر
ولذلك كله سرنى كثيراً أن يظهر « مختار القصص » وأن أعثر فيه على سبع قصص
مصرية تصور الحياة المصرية في البيئة المصرية بروح مصرية أو بالحرى تصور
العاطفة المصرية سبع قصص يمكن أن تعتبرها نواة صالحة لحياة أدبية قصصية جديدة
وهي كلها تصور أيضاً الحياة القومية المصرية البسيطة بل الساذجة وأقصد تلك التي
لم يفقدها امتزاجها بالحياة الغربية والشرقية الأخرى امتزاجاً مشوشاً تركها خليطاً
مضحكاً من عادات وتقاليد لا اتساق لها ولا رابطة بينها، أقول أعجبنى من الأستاذ كامل
كيلانى أن يعتمد إلى تصوير هذه الحياة المصرية البريئة التي لم تعكرها اللوثة الدخيلة،
وأن يؤثر تصوير البيئة المتوسطة ويفضلها عن الحياة العصرية الراقية المتكلفة التي لم
يستقر لها قرار بعد والتي تتبدل كل يوم في شكل جديد !

(٢)

و « مختار القصص » كتاب حسن المظهر أنيق الطبع وحسبك أن أذكر أن
« دار العصور » هي التي تولت طبعه وأن « مكتبة الوفد » هي التي عنيت بنشره لتصور
الشكل الذى يصدر به كتاب أدبى اجتمعت له هذه الأسباب . ويواجهك من الكتاب
تصدير للناسر يقدم لك فيه الأستاذ كامل كيلانى بدراساته الجديدة في الأدب العربى
وعنايته بالأدب القديم والكتاب مصدر أيضاً بقصيدة رائعة للدكتور أبى شادى
في (الأدب القصصى) ولعلها الاولى من نوعها أن تحلل هذا الادب الجديد وهي
وإن كانت موجهة للأستاذ كامل كيلانى إلا أنه يمكنك أن تعتبرها مثلاً توجهه
للكتاب القصصى المصرى المنتظر وأنت إن أقبلت عليها فلن يسعك إلا أن تعجب بمطلعها
إن الحياة — اذا اعتبرت — رواية فاستوح من قصص الحياة جمالا
ولن يسعك إلا أن تزداد إعجاباً عند هذا المعنى المبتكر :

فترى التأنيق في حياة سطور هـ وترى الحياة به انفيض جلالا

ولا أظنك تمر على هذا المعنى دون أن تستعيد البيت لئتم استمتاعك به :

وترى التصرف بالحوالذ زادها هـ خلداً وزاد ما آلتها آمالا

ثم تفرغ من هذا كله إلى مقدمة للأستاذ العلامة الجليل اسماعيل مظهر بك في القصة

ونشأتها وتطور فكرتها، ولا أحسبك تطمع أن تروى غلتك في مثل هذا البحث من غير الاستاذ مظهر بك، فانه ينتقل بك من تحليل بارع من صورها الاولى وأثرها في حياة الانسان الأول إلى تطورها الديني وتكييفها لمعتقدات البشر أو تكييف المعتقدات لها، ثم إلى ازدهارها واتساع أخيلتها لما جاء القرن الحادى عشر ولم يتغير الكون مع انهم كانوا يعتقدون نهاية العالم. وهو يبحث معك كل هذا في أسلوبه العلى الاستقرائى الطريف والكتاب مع ذلك مقتطفات من كتب ثلاثة :

الأول — كتاب «مختار قصص السينا»

والثانى — كتاب «قصص بوكاشوف»

والثالث — كتاب «قصص مصرية»

ولن نعرض هنا إلا للنوع الأخير أى القصص المصرية وسندرسها وننقد هامها ملين أن تكون لنا عودة للنوعين الآخرين في فرصة أخرى ذاكرين أن الأدب القصصى الجديد (ونقصد ذلك الذى يصور العاطفة المصرية كما أسلفنا) لم يبرح أطواق الحدائق بعد وإن الاستاذ كامل كيلانى هو أول كاتب قصصى مصرى، أمكنه أن يصور العاطفة المصرية في بيئة مصرية خالصة ومجتمع مصرى. بحث أما ما قد يكون لدراستنا من ملحوظات نقدية فهى ما لا بد منه فى مستهل مثل هذا الأدب الجديد .

(٣)

وأولى القصص التى سندرسها معا هي «سنية» وأنت تشعر اذ تقرأها انها تسير سيرا حسنا معقولا إلى أن يستحكم الحب بينها وبين محمد، والاستاذ كامل كيلانى حرص (فى كل قصصه تقريبا) على أن يفجأك باستحكام أو اصر المحبة بين ابطاله رأسا وهو لا يريد أن يرهقك أو يشجى عواطفك بشرح أدوار الغرام التى أدت إلى استحكامه ثم إن أباه الشيخ ابراهيم و الرجل الصالح التقى الورع، نهج نهجا مدهشا فقد غضب وخرج عن طور الرزاة والحلم اللذين اتصف بهما، لما فاتحه ابنه محمد بأمر زواجه من حبيته سنية ومانع بشدة. ولكن ذلك لم يزد محمدا إلا تعلقا بفتاته فخاف عليه من الجنون ووعد بذلك، ولكن يعمد بعد ذلك إلى خطة غريبة حقا، فانه يعلم مبلغ حب محمد للفتاة، الحب الذى خشى أن يسبب له الجنون ان حرمه. وهو مع ذلك يرسله إلى

الريف في مهمة خاصة و يوم سنية انه هجرها وانه لا يحبها،) فتبعته اليه بخطاب قاس تعاتبه فيه وتقاطعه وتعلنه بزواجها من ابن عمها (ودأبما ابن العم في كل قصة وعند كل كاتب قصصى) يصفق الشاب لهذا النبأ ويسقط مغمياً عليه ويعود للقاهرة في نفس اليوم ويعيش مسلوب اللب في هجر مدرسته ودراساته الأخرى وينصرف إلى « تأملاته الحزينة ويأسه المميت »، ويظل هكذا ستة شهور يسمع بعدها عرضاً أن حبيبته قد زفت إلى زوجها العنيد منذ يومين فقط، وتتفرح في نفسه جراحات القلب التي كادت تندمل فلا يحتمل آلامها ويظل يتعمل حتى يخلصه منها ماء البحر !

والقصة بهذه الخاتمة لا تخلو من بعض تصرفات شاذة، فان الشيخ ابراهيم الذى كبح جماح نفسه أولاً، ووعد ابنه « محمداً » بزواجه من حبيبته سنية، لأنه لما حاول الاعتراض رآه « يهذى في نومه وفي يقظته »، ولأنه « كان وحيد أبويه »، ولأنه « خشى أن يصيبه مس من الجنون » — الشيخ ابراهيم الذى يقدر كل هذا ويخشى عواقبه في أول الأمر فيعد وحيداً بالزواج من حبيبته، لما لم يجد من ذلك مخرجاً، لا يعقل أن ينقلب على ابنه فجأة فيدير له هذا الأمر الذى يسلبه له ويفقده الوعى، ثم انه يراه وقد هجر مدرسته وانصرف إلى « تأملاته الحزينة » ويأسه المميت، ولا يحرك مع ذلك ساكناً، لا يلوح له بيارقة أمل وهو يعلم أن الفتاة لم تتزوج بعد، ولو ان له تلك النفس الأولى التى تجزع إذ ترى وحيداً مهدداً بالجنون فتعده بأمنيته: لو ان له تلك النفس لما أمكن أن تطمئن إلى تركه مشرداً تائه الفكر واللب مصعوقاً مع ان الحل بسيط، فقد مكثت الفتاة ستة أشهر لم تتزوج خلالها كما أوهم ابنه « ثم إن والد الفتاة وإن كان وضع المركز إلا أنه « على النفس تزينة الأمانة والاستقامة ويحليه الصدق والاخلاص والزاهة »، يشهد بذلك الشيخ ابراهيم نفسه الذى « رأى من أماته واستقامته ما زاد ثقته به » !

اسم القصة « سنية »، ولكن محورها كان يدور حول « محمد » وحده، فقد تبعه المؤلف وحلل شخصيته بأسهاب واستقرأ خواطره وآراءه في شتى الحالات، وقد شرح لنا فعل الحب به؛ ولكن لم يشرح فعله « بسنية »، والفتاة كانت تحمل للفتى مثل حبه، ولكنها مع ذلك استقوت على الحب، وعلى مقاطعة الحبيب، وعلى الزواج من غير الحبيب دون أن تحدثها نفسها بشئ، « بينما نفس « محمد » تحدثه بأشياء لم يخلصه منها سوى الانتحار !

ويكاد يبدو الاقدام على الانتحار غريباً، ويكاد يكون من ذلك النوع الذى تنعاه على القصص المصرية المنتشرة الآن والمتشعبة بالروح الاجنبية والبيئة الاجنبية، والتي نود أن نخلص منها إلى القومية المصرية البحتة التي يجب أن تصبغ كل مظاهر قصص الأدب المصرى القومى المنشود .

وإذا كان المحب الغنى الحسيب قد انتحر لأنه لم يتزوج من فتاة فقيرة وضعية الحسب تبادل له الحب فقد كان الأولى أن يسبق إليها هي خاطر الانتحار إن لم تسبق هي إليه .

*
* *

— ٤ —

ونفرغ من « سنية » أولى القصص المصرية بأمرين :
أولهما : — أن الأستاذ كيلانى قد وفق إلى أبعد حد فى تصوير العاطفة المصرية فى بيئة قومية : فكان بذلك أول كاتب قصصى استطاع أن يصوغ لنا قصة قومية مصرية بحتة

ثانيهما : — أن الأستاذ كيلانى رغم دقة تصويره ، ورغم توفيقه فى هذا التصوير يتعجل انتهاء قصته قبل مناسبتها فيضطر إلى الالتجاء إلى الروح الغريبة والفكرة القصصية الاجنبية التى لا تصلح أساساً لقصص قومية لبعد الاختلاف بين الحياتين والبيئتين

وسنرى معاً كيف أن الأستاذ كيلانى سار فى توفيقه الأول سيراً حسناً سريعاً ، وكيف انه وإن لم يتخلص تماماً من الأمر الثانى ، حاول أن يلزم الروح المصرية جهده .

والقصة الثانية التى ندرسها الآن هي « التهمة » — وأنت ترى فى مستهلها حسن افدى ضابط الجيش مطمئناً إلى جلسته فى قهوة بيور سعيد ؛ وأنت ترى الشاب الآخر الممتلئ الجسم القوى العضل يقترب منه وعلى وجهه آثار الاضطراب والذعر وأنت تجد حسن افدى يضطره حياؤه أخيراً إلى مجالسة الشاب الغريب الذى بدأه بالتحية

ويبدأ الشاب قصته بصوته المتهدج المضطرب، فيروي لحسن أفندي كيف أنه وزوجه نزلا إلى هذا البلد منذ شهرين وانهما قضياهما في صفاء إلى أن تعرفت إلى زوجته عجوز خبيثة أفسدت عليه أمرها، وكيف انتهى أمرهما اليوم إلى شجار كلامي عنيف صممت الزوجة بعده على مغادرته وهددته بالهرب إذا لم يطلقها، وكيف أنه أحكم عليها قفل الباب وانصرف يبحث عن وسيلة تقنعها بالعدول عن فكرتها وليس له في البلد قريب ولا صديق، ثم كيف صار أخيراً حتى وقع نظره على حسن أفندي فتشعر «بجاذبية عجيبة» له، ويختم حديثه إليه بقوله:

«وكان هاتفا خفياً يهتف بي أن خلاص كرتي على يدك،!»

وينتهى الأمر بهما إلى قبول حسن أفندي القيام مع الشاب الغريب إلى منزله ليصلح بينه وبين زوجته! وأنت ترى أن حسن أفندي ضابط الجيش كان ساذجاً إلى حد بعيد — ان لم يكن ابلاً — فقد كان يحب أن يقدر — أن محدثه شاب مصري هو في الوقت نفسه زوج شابة مصرية اختلف معها لأسباب خاصة يظن هو أنها مفسدة لها، فمن غير المعقول أن يوسط في الصلح بينه وبين زوجته الشابة — التي يغار عليها والتي كانت الغيرة السبب الوحيد في اختلافهما — لا يعقل أن يوسط بينه وبينها شاباً مصرياً غريباً عنه وعنهما، ولا يمكن أن تطمئن هي إليه اطمئناناً بريئاً! كان على حسن أفندي أن يقدر هذا كله ويدرك أن في الأمر سرّاً آخر، فقد أقدم الشاب الغريب على أمر قد يعد جرأة غريبة من رجل أوروبى في بلد مثل باريس أو غيرها من بلدان الإباحية المتطرفة، فما بالك به في مصر التي لاتزال ترسف في أغلال الحريم والحجاب وما إلى الحريم والحجاب من تقاليد وقيود! ثم انها قد تبدو مدهشة لو صدرت من صديق خبر أحوال صديقه وسبر غوره وبادله الاخلاص الأكيد والثقة المطلقة، فما بالك بها من شاب غريب في بلد كبير سعيد، لاخر غريب عنه وعن البلد ولم يربا بعضهما قبل الآن ولا جمعت بينهما غير ظروف خاصة غريبة...؟

وأغرب من كل هذا أن يذهب حسن أفندي مع الشاب إلى منزله فيدخله غرفة قاصية ويطلب إليه أن ينتظر ربّما يحضر إليه زوجته ليصلح بينهما!.. ولو أنني رأيت هذا التصرف في رواية سينمائية أوروبية إباحية، لما أعجبت من مؤلفها بمثل هذه الفكرة.

الغريبة الجريئة، قبل ترائى اطمئن اليها من مؤلف مصرى يصور الحياة المصرية
في بيئة مصرية خالصة !

ويستظر حسن أفندى ما يشاء له صبره الطويل وهو لا يسمع حركة ثم يحس وحشة
في المنزل فيخرج من حجرته بحذر يتفقد المكان الذي ساقه اليه قلبه الطيب بلطيشه
و عدم تبصره ولكنه لا يجد أحداً . . . ووصل إلى غرفة رآها مظلمة ، أضاءها فوجدها
حجرة نوم فخمة ، نعم لقد وجد سريراً من أفخم الأسرة ، فدنا منه ، ورفع اللحاف
قليلاً فرأى وجهها رائع الحسن . بسم ، وظن أن الرجل قد تركه في الشقة ليصل به
إلى هذه النتيجة ، وحسب الفتاة تصنع النوم . لمس كفها فوجدها باردة ، وتحقق من
وجهها فرأى سمات الموت بادية عليه قليلاً . . . رفع الغطاء كله ، فإذ رأى
باللهول — أمعاؤها خارجة — ولا تزال المديّة التي بقرت بطنها في صدرها غارقة في
دماء الفتاة !

نعم لقد وجدها قتيلة وليس في الحجرة معها غيره !
ولا يكاد حسن أفندى يستفيق من دهشته وذهوله إلا وهو بين أيدي رجال التحقيق،
وينكر حسن أفندى طبعاً جريمة القتل التي ألصقتها به الظروف القاسية ولكنهم
يسخرون منه وينصحونه أن يعترف بالحقيقة ! فقد انفتحت على إدانته أدلة قوية لا يأتيها
النقض من جهة من جهاتها، ثم هو يستطيع بمشقة أن يثبت لهم براءته بشهادة الكشف
الطبي وبشهادة غلام القهوة التي كان جالسا عليها حين جاءه الزوج لأول مرة ويقبض
على الزوج الجاني فيعترف بجريمته وينال جزاءه .

— ٥ —

ونفرغ من هذه « التهمة » بأمرين أيضا :
اولهما — أن الاستاذ كامل كيلاني استمر موقفا في تصوير العاطفة المصرية في
بيئة مصرية قومية تصويراً جديراً بكل إعجاب .
ثانيهما — أن الاستاذ كامل أفندى كيلاني لم يتعجل هذه المرة نهاية القصة ، ولكنه
تعجل تكوين « العقدة » القصصية ، ثم استمر هادئاً موقفاً في دقة تصوير

بارعة وجاء ختام القصة نتيجة طبيعية للعقدة القصصية فكان من أسباب

تبرير التعجيل الذى لجأ الاستاذ كيلانى اليه فى تكوينها .

وتترك (التهمة) لندرس معا القصة الثالثة (عزيزة) وهى أروع قصه صورت

العاطفة المصرية تصويرا صادقا مفصلا ، وحللت الحب فى البيئة المصرية المحجة ورقبت

أطواره فى نجاح وتوفيق . فأنت ترى عزيزة فى بداية القصة تتصرف عن اتفاق هنداما

وسائر ما يشغل الفتيات من سنه ، ترى تلك الفتاة النحاسية النجيفة التى تكاد مع ذلك

تدانى الرجل فى جرأته وقوة بطشه لا يشغلها إلا أمر توطيد مركزها ومركز أسرتها

المتوسطة الحال فى ذلك الحى الفقير الأهل بالعمال والمساكين ، والا أمر آخر يدر على

أما بعض أخلاف الرزق ، ذلك هو قيامها ببعض أعمال تجارية بين القاهرة وبعض

قرى المنوفية ، تحمل إليها الأثواب والانسجة لتبيعها للقرويين ، أو لتبادلهم بها السمن

والغلل وسائر ما يطعم مثلها فى الحصول عليه من المحصولات القروية .

وتصادف عزيزة فى تنقلاتها شابا فلاحا قوى الجسم مفتول الساعدين فيجبها

وتحبه ، وينمو بينهما الحب سريعا فيؤرقها ويقض مضجعها ويشغل عليها كل أوقاتها

فتكثر من التردد على ذلك البلد بمناسبة وبغير مناسبة وتلجأ الى جوارها حوذى مشهور

فى الحى بالحذق واللباقة فتستودعه أسرارها وتتخذة وسيطا فى إرسال وتسليم رسائل الغرام

بينها وبين معشوقها مقابل بضع قروش أو علبه سجائر تجود بها عليه بين حين وآخر .

وغير الحب أحوالها فانقلبت من فتاة (شرسة لا تنطرق الرحمة الى قلبها) ولا تعرف

هواة فى إنفاذ انتقامها المروع ، الى فتاة أخرى مستكينة هادئة قد هذب الحب قلبها

وأذلها وكسر شكيبتها وأقض مضجعها وألجأها الى حوذى ما كانت تفكر لحظة فيه

لولا هيأها بعشيقها الذى لا تحلو لها الحياة الا به .

وأنا أريد أن أقف بك هنا لحظة تستعيد فيها ما قرأت وتترك العنان لآعجابك

بهذا القصصى الذى يوفق الى التسلسل الطبيعى الظريف فى ذلك التصوير الرائع للطائفة

المصرية الخالصة فى البيئة المصرية البحتة ، وليس أدل على ذلك من أن نعود بك الى

محور القصة لترى كيف تكاد تلهب نيران الغرام أحشاء عزيزة وكيف تتحلل الاعذار

لكثر من التردد عليه فى بلده وكيف ينتهى ولع الشاب بها بالنتيجة الطبيعية التى ينتهى

إليها حب مثله إذا نال وطره . استمر معها نحو عامين تلاهما زهده فيها وانصرافه

عنها وان بقيت هي تجن له الحب وترى فيه (المثل الأعلى الذى تصبو اليه نفسها) !
 ويتمادى العشق في فتوره ، وعبثاً تحاول اجتذابه اليها ، فقد ملها وتاقت نفسه الى متعة
 أخرى ، تأس « عزيزة » من حبه فيضنيها هجره ويمضها فراقه ، ونكابه فلا تحظ منه
 برد . وتحاول مقابلته فيتهرب منها فتصرف عن هذا كله إلى ما تنصرف إليه المرأة
 المقهورة المغلوبة على أمرها : تلجأ إلى الدموع في مذلة ومسكنة ، وتصبح وديعة
 حزينة ، وتسرى عدوى حزنها إلى أمها فتكفان عن أذى الناس ، ولا يمر زمن طويل
 حتى تنكب هذه الأسرة في أمها الوحيد في الحياة إذ يقع الابن الفرد تحت عجلات
 القطار فتقطع ساقه اليمنى وتصاب اليسرى بضرر جسيم .

تولد « عزيزة » وتلطم أمها الحدود وتشق الجيوب وينخلع قلب الزوج وتقضى
 العائلة بقية أيامها في أسى صامت تثيره تلك الساق التى وضع الاطباء بدلهاساقاصناعية .
 وتنشب الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ وتكثر الاضطرابات وتسمع « عزيزة »
 وهى تتناول عشاءها - صوت طلق نارى تعقبه صيحة يخيل إليها انها صادرة من
 شقيقها فتترك عشاءها وتهول في الظلام حتى تصل إلى ذلك الشخص الصريع ولا
 تكاد تميزه حتى ينهال عليها وابل الرصاص فتخر صريعة لا تنبس بلفظة !

— ٦ —

ونخرج من « عزيزة » أشد اعتقاداً في توفيق المؤلف في تصوير العاطفة المصرية
 في البيئة المصرية وأكثر إعجاباً بدقته في التصوير وبراعته في ترتيب القصة المنطقى .
 وترى انه لم يتعجل هذه المرة « العقدة » القصصية ولكنه كان يساير المنطق القصصى
 في هدوء ولم يتعجل الخاتمة كذلك وإن دس ثورة سنة ١٩١٩ لينتهى بها من « عزيزة »
 ويفرع معها من القصة ! ولكنه مع ذلك تخلص معقول ؛ بل تخلص بارع بالنسبة لما
 يلجأ إليه غيره من القصصيين المصريين .

ونفرغ من « عزيزة » لنعالج دراسة « الهتيكة » ولعلها أحسن وأمتع ما يحويه
 مختار القصص ، من القصص المصرية ولوانها تميل إلى ذلك النوع الوصفى الذى انصرف
 إليه كل كتابنا القصصيين ، ولكنها مع ذلك ممتعة بارة التصوير ، فانت ترى الحاج

على في بدايتها بدأب على تكوين وتنمية ثروته المحصورة من طريق التجارة ، وأنت تراه أيضا بعد مضي خمسة عشر عاماً يستطيع أن يبني له بيتاً قريباً من محل تجارته وينشئ في أسفله دكاناً خيراً من الدكان الذي كان مستأجره في الزمن الأول .

ويظل الحاج على يعيش مع زوجته خديجة الريفية في دور أرضى حقير يرزقان فيه بانه وثلاثة أبناء ذكور ، فلما تحسنت حالتهم المادية انتقلوا جميعهم إلى المنزل الجديد . وتدأب الأسرة كلها على تحصيل الثروة : الولدان الكبيران يساعدان أباهما بالعمل أجيرين ، والاب ينصرف إلى توسيع تجارته والتحجب إلى عملائه فيقبل عليه الناس . يد أن الابن الثالث كسول يميل إلى البطالة ولا تنفع معه شدة أبيه وصرامته والجهود العظيمة التي يبذلها في إصلاحه ، ولكنه وضع لنفسه هدماً معقولا .

ولكن خديجة الزوجة الريفية التي قاست مع الحاج على شظف العيش تطلعت إلى البطر ورأت من حرص زوجها عقبة لم تذللها إلا بالسرقة منه ، فانفقت مع جارة لها فقيرة على نهب زوجها وتغفله ، تسرق لها ما تصل إليه يدها من مخازن زوجها وتبيعه لها الجارة وتشتري لها به ملابس وجوارب ومناديل وذلك أقصى ما تطمع فيه ! وكانت خديجة لا تخرج في تكليف ابنتها « سميرة » بالقيام بهذه المهمة تضع لها الجبن أو الصابون في اناء قذر وتخرج به أمام والدها على انها تحوى أقذاراً تريد إلقاءها في الخارج ويموت الحاج على تاركا لأسرته ثروة لا بأس بها ، بل هي كبيرة بالنسبة إليهم إذا أضفت إليها المنزل الذي بناه حديثاً . ولكن الاعمال لا تلبث أن تختل إذ يندفع أصغر الأولاد إلى تيار الملاذ الجارف بعد أن زال الكابوس الذي كان مصدر مضايقته المستمرة . يغلق محل التجارة بعد مدة ويبيع أكثر البيت ويفلس القائمون بأعمال التجارة بعد وفاة عميد الأسرة !

ويعود الولدان الكبيران إلى مزاوله عملهما الأول وهو على حقارته ومشقته لا يكاد يسد الرمق ، ويتأدى الأصغر في ملاميه حتى إذا غضب معين تقوده عمد إلى السرقة فيصادفه النجاح أول أمره ، ولكنه لا يلبث أن يضبط ويزج به في السجن .

وما تزال المرأة والفتاة تعانيان شظف العيش وتقاسيان مرارة البؤس من حدرتين من سيء إلى أسوأ حتى بلغت أقصى حدود الشقاء . وتسف الام بابنتها وتقذف بها في الهاوية السحيقة فتتردى فيها الفتاة وقد قدمت أثمن ما تملكه الفتاة الشريفة أو تدور

الايام وتزوج الفتاة من شاب فقير سليم الطوية كثير التفاضى يميل الى الدعة ويرى في حسن ما يفسيه كل اعتبار آخر .

وتمر السنون متتابعة . وتنتقل « سميرة » مع زوجها الهادى المستكين الى سكن ارضى ضيق مظلم يستأجرانه من شيخ محسن بأجر ضئيل يتنازل عنه بعد أن يتبين له فقرهما المدقع - هذا والسيدة خديجة لا تفتأ تتردد على منزل ابنتها مزينة لها الانسياق في نيار الرذيلة تغريها حتى لسرقة الحيوانات الضالة في الطريق ، وكم وقعت لها بطة سمينة أو أوزة تشبع نهمها حيناً ، وكان الزوج يودع زوجته كل ما يربحه وهى تدبر له أمر معاشه ، وكم كان معجبا بها وتبديرها الحسن عند ما يجلس الى طعامه فتقدم له البطة أو الأوزة يستمتع بها وهو لا يكلف نفسه مشقة التحرى عن مصدرها :

وزارت الام قاتنا ذات يوم ، فرأت عند بابها ما أفعم قلبها سرورا وبهجة ، عنزة سمينة تأتى الى باب منزلها بدميها ، يا للغنيمة !

كانت العنزة ملكا لصاحب مقهى مجاور للمنزل . وكان يقضى نهاره في مراقبتها أو تكليف أحد غلبانه بذلك . وكان واقفا يلحظها وهى تتلصق أمام منزل « سميرة » . وحدث أنه غاب عنها داخل القهوة لحظة قصيرة لامر ما . لحظة قصيرة جداً . ولكنه لما خرج لم يجد عنزته المحبوبة . ووجد باب المنزل مغلقا . طار عقل الرجل . وهرب كالجنون حتى وقف امام المنزل ونظر اليه في تردد . ومرة اذ ذاك احدى نساء الحى وكانت ماكرة لثيمة ، ويظهر أنها كانت ترقب افعال المرأتين وتضمر الشر لهما واتهزت هذه الفرصة فدنت من صاحب المقهى وهمست فى أذنه . وحدث أن مرت أخت الرجل . ويظهر انها كانت كاتخيا معروفة فى « الحارة » بالحوول والجبروت . فانها ما كادت تعلم بقصة أخيها حتى هاجت وماجت وصارت تهجم على الباب تفرعه بعنف ولكن ما من بحبيب . ويسمع الجيران بالامر ويتزاحمون على بيت « سميرة » . ويتقدم جارها ليقف فيها ويتعهد للحاضرين باثبات براءتها بعد ان يؤكد لهم بعدها عن كل شين . ويدق الباب وينادى على الفتاة بصوته فيسمع جوا باخافتا فأتراً كاتنما هو صادر من شخص يستيقظ من النوم . يسمع صوت يمهله قليلا حتى ترتدى « احبته ثيابها » ويفتح الباب بعد برهة ويندفع اليه الناس يفتشونه وتسلس السيدة « خديجة » ، والدة الفتاة بين الجموع المحتشدة بالباب ، ولا يترك صاحب العنزة جزءا من البيت إلا يبحث فيه بدقه ولكنه لا يعثر على شئ .

فيخرج أسفا على سوء ظنه بالناس ويعلو البشر أسارى وسميرة، وتندفع تندد لصاحب المقهى وباخته وتسبها على سوء ظنهما بها وهي الفتاة الطاهرة الشريفة. وتسمع أخت صاحب المقهى هذا فتستشيط غضبا وتهجم على البيت لأنها تحقق هاجسا خفيا في نفسها وتذهب الى مكان خاص فيه زير وتنظر في ذلك الزير فلا تجد شيئا وينا هي تهم بالعودة كاسفة البال اذ بالزير يهوى الى الارض فتسيل الماء ويسقط معه جسم العنزة وقد شطر شطرين!

يهل الناس ويصفق الاولاد ويشدد الزحام وتساق الفتاة بين سخرية الجموع الى مركز الشرطة وقد حملت الماعز التي ذبحتها في اية من اوانها. ويرق لها قلب خصمها صاحب المقهى لما تقرب من مركز الشرطة فيعفو عنها بعد أن يتعهد له أحد المحسنين بدفع نصف ثمن العنزة وان عجزت هي عن سداده .

وتتوب وسميرة عن السرقة بعد هذه «الهيئة» وتنصرف الى الصلاة والنسك!

—V—

وأنت ترى اننى لم أكن مبالغاً حين ذكرت لك أن «الهيئة» من أقوى وأبرع القصص التي تناولت الحياة المصرية وإن انصرفت كل العناية الى الناحية الوصفية ، وإن أريد أن أترك لك أمر دراستها في مختار القصص ، فلم أذكر لك إلا ملخصاً أبتر ، ولست أؤكد لك أن تلخيصي هذا لم يشوه القصة ولم يمسحها ، لأنها كما ذكرت لك من النوع الوصفى أو هي « صورة » ، يجب أن تلم بكل أركانها وتتمعن فيها قبل أن تجازف برأيك - ولأجل هذا لا أود أن استلخص معك شيئاً من هذه القصة ، بل أتركها لدراسك الشخصية وإن كنت واثقاً ان النتيجة في الحالين لا يتنا لها تغيير كبير . وهناك من القصص المصرية - غير «الهيئة» - ثلاث قصص أخرى لم نعرض لها هنا وكنانظن أن في المجال متسعاً لبحثها ودراستها ، وهي « المصادفات » ، و « المتردية » ، و « المفاجأة » ، ولن أشير عليك بأكثر من الرجوع اليها وقرائتها لتؤ من معي بأن الأستاذ كامل أفدى كيلانى كان موفقاً فيها كلها إلى حد كبير ، فقد استطاع أن يصور لك كما قلت الحياة المصرية الصحيحة في البيئة المصرية البحتة أو بمعنى آخر كان أول قصصى مصرى صور العاطفة المصرية فى أدب قومى جديد

تعمدت أن لا أتناول في هذا البحث إلا نوعاً واحداً من القصص التي حوّاها
 « مختار القصص » ومع ذلك لم يتسع المقام لدراسة هذا النوع الواحد وإن كنت قد
 ألممت بالفكرة إلاماً . وأنا أعتذر للقارىء عن هذا التقصير الذى لا بد لى فيه وإن
 فاتنى أن أدرس معه قصص بوكاشو التي تعد الضوء العالمى الذى قبس منه كل كتاب
 الغرب . إن فاتنى هذه الدراسة الطريفة فإن يفوتنى أن أوجه نظره إلى « إوز
 فلورنسا » والهرم وتقويمه السنوى وقسوة زوج غيور وتغفل مزدوج وغيرها .
 والاستاذ كامل كيلانى — كما يقرر ناشر الكتاب وكما نعرف — أديب كبير
 معروف بدراسته الجديدة للأدب العربى فضلاً عن صيته الذائع كـ « عظم حجة بيتنا
 فى أدب المتنبي والمعري وابن الرومى » وقد شهدت على آثار مجهوده العظيم فيما
 در سنائه له معاً من قصص مصرية ولعلك لا تتردد فى تصديقى إذا قلت لك إن الأستاذ
 كيلانى سكرتير رابطة الأدب الجديد بالقاهرة لا يجد الغرور اليه سيلاً فما زال
 بعد ما ظهر من إنتاجه ومجهوده مقدمات لما سيظهر ولا زال يسعى وراء النقد الحرج .
 بينا غيره يجرى وراء المادحين المتملقين وأذكر هنا أن الأستاذ كيلانى لما بلغه أتى
 أكتب عن (مختار القصص) كتب الى ما أثبتته هنا حرفياً :

ولعلك تعرف ياسيدى الأخ أنى أرحب — أو على الحقيقة من أرحب — الناس
 صدرأ لسماع عبارات النقد لا تنفع بها فى القصص التالية — هل قرأت ؟ وهل
 شعرت بالفرق بين زعماء الأدب الجديد المتواضعين الداعين الى الأخاء والسلام
 الأدبى وبين المتألهين المتعجرفين الداعين الى التنابد والفردية الأدبية الممقونة ؟

ولقد اجتهدت أن أتسقط مواطن النقد فى « مختار القصص » ولكنى أعترف
 أنى لم أوفق وأن أضعف ما فى هذا البحث هى « أخذ النقد فقد يكفى للرد عليها أن
 الأستاذ كامل كيلانى أقدم على أدب مصرى قومى جديد ولم يسبقه قصصى آخر الى
 تصوير العاطفة المصرية فى مثل هذا التوفيق ؟

الاسكندرية فى ٥ سبتمبر سنة ٩٢٩

على محمد البهراوى